

رَأْيَاتُنَا
كُرَيْسِي

عِيْنَةٌ مِّنَ الرِّوَايَةِ
(لِلتَّصْفِحِ وَالْإِطْلَاعِ)

جَرِيْمَةُ عَيْدِ الْمِيْلَادِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اغانا كريستي

جريمة عيد الميلاد

طُبعت للمرة الأولى باللغة الإنكليزية عام ١٩٣٨

ترجمة: محمود الخطيب

مراجعة الترجمة: نبيل عبد القادر البرادعي

تحرير: رمزي رامز حسون



الأجبال
للترجمة
والنشر

AJYAL Publishers

هذه الترجمة تضم النصّ الكامل لرواية أغاثا كريستي
المنشورة أول مرة عام ١٩٣٨ بعنوان

Hercule Poirot's Christmas

Copyright Agatha Christie Mallowan 1939

حقوق الطبع محفوظة للناشر:
الأجيال للترجمة والنشر والتوزيع

يُمنع نقل أو تخزين أو إعادة إنتاج أي جزء من هذا الكتاب
بأي شكل أو بأية وسيلة: تصويرية أو تسجيلية أو إلكترونية
أو غير ذلك إلا بإذن خطي مسبق من الناشر

Arabic edition published by AJYAL Publishers
e-mail: books@al-ajyal.com

الطبعة الرابعة

٢٠٢٠

الفصل الأول

الثاني والعشرون من كانون الأول

رفع ستيفن ياقة معطفه وهو يسير بخفة على الرصيف. كان الضباب المعتم فوقه يغطي محطة القطارات، فيما تهدر أصوات المحركات الضخمة نافثة سحباً من الدخان في الهواء البارد النقي. كان كل شيء قدراً ملوثاً بالسخام.

فكر ستيفن مشمئزاً: يا لها من بلاد قذرة! يا لها من مدينة قذرة! لقد تلاشى انطباعه المعجب الأول عن لندن، بمتاجرها ومطاعمها وأناقة ساكنيها، ورأى ذلك كله الآن كحجر لامع من الألماس الزائف رُكّب على خاتم صديءٍ قذر.

ماذا لو عاد الآن إلى جنوب أفريقيا؟ أحس بوخزة سريعة من الحنين إلى الوطن. هناك حيث أشعة الشمس والسماء الزرقاء وحدائق الزهور. أزهار زرقاء رائعة... أسيجة شجرية بالغة الجمال... واللبلاب الأزرق العالق بكل كوخ صغير.

أما هنا فلا شيء غير القذارة والسخام والأكوام البشرية التي لا تنتهي، تتحرك وتسرع وتندافع. مملكة نمل مشغولة تكدح

وتتراكض حول بيتها.

فكر لحظة مع نفسه قائلاً: "ليتني لم آتِ!" ثم تذكر غرضه فتراجعت شفتاه لتُبديا تجهماً. لا، سوف يستمر في هذا الأمر! لقد خطط له منذ سنوات، وكان يعتزم دائماً أن يفعل ما هو ذاهب لفعله. نعم، سوف يمضي في هذا الأمر!

لم يكن ذلك التردد القصير وذلك التساؤل المفاجئ الذي سأله لنفسه: "لماذا؟ هل يستحق الأمر ذلك؟ لماذا أعيش في الماضي؟ لماذا لا أنسى الأمر كله؟" ... لم يكن ذلك كله إلا ضعفاً. إنه ليس غلاماً غراً حتى يغيّر تفكيره كل يوم بسبب نزوة عابرة، إنه رجل في الأربعين واثق من نفسه ويعرف ماذا يريد. سيمضي في هذا الأمر، وسيقوم بما جاء إلى إنكلترا لفعله.

دخل القطار وسار في الممر يبحث عن مقعد. كان قد رفض أن يحمل له الحمال حقيته الجلدية ومضى يحملها بنفسه وينظر من مقصورة إلى أخرى. وكان القطار مليئاً، إذ لم يبق إلا ثلاثة أيام ويحلّ عيد الميلاد.

نظر ستيفن فأز إلى المقصورات المزدحمة باستياء: أناس! أناس لا يُعدّون ولا يُحصّون! وكلهم ذوو وجوه... كيف يصفها؟ مملة! وجوه متشابهة، متشابهة بشكل فظيع! رأى أن وجوه أولئك الناس وهم يثرثرون ويجادلون تشبه وجوه الأرانب، وبعض من الرجال الكهول كان ينخر أشبه بالخنازير. حتى الفتيات النحيلات ذوات الوجوه البيضاء والشفاه القرمزية ظهرن بصورة تقبض الصدر.

فكر -باشتياق مفاجئ- في المروج الخضراء الواسعة وأشعة

الشمس والوحدة، ثم أمسك أنفاسه فجأة وهو ينظر داخل إحدى المقصورات. هذه الفتاة مختلفة: شعر أسود ولون شاحب كلون الحليب وعينان فيهما عمق الليل وظلمته؛ عينان من حزن وكبرياء لفتاة من الجنوب.

كان من غير الطبيعي أن تجلس هذه الفتاة في هذا القطار بين هؤلاء الناس المملين المتشابهين، وكل الخطأ أن تذهب إلى أواسط إنكلترا الموحشة الكئيبة. كان ينبغي لها أن تكون واقفة على شرفة وبين شفيتها وردة وشريط أسود يزين رأسها الشامخ، وكان ينبغي أن يكون هناك غبار وحرارة ورائحة دم؛ رائحة حلبة مصارعة الثيران! ينبغي لها أن تكون في مكان رائع، لا أن تكون محصورة في زاوية مقصورة من الدرجة الثالثة!

كان رجلاً قوي الملاحظة. لم تفتنه ملاحظة البلى الذي لحق بمعطفها الأسود الصغير وتنورتها والنوعية الرخيصة لقماش قفازيها وحذائها الرديء، ومغزى التحدي في حقيبة يدها الحمراء. ومع ذلك كانت الفخامة هي الصبغة التي وجدها فيها. كانت فخمة حقاً، جميلة وغريبة الشكل والمظهر.

ماذا عساها تفعل في بلد الضباب والبرد والنمل الكادح المتراكم؟

فكر في نفسه: يجب أن أعرف من هي وماذا تفعل هنا... يجب أن أعرف.

* * *

جلست بيلار محصورةً بجانب النافذة وفكرت كيف تبدو رائحة الإنكليز غريبة جداً! كان ذلك أكثر ما لفت انتباهها حتى الآن في إنكلترا... الاختلاف في الرائحة. لم تشم رائحة غبار، كما لم يكن هناك إلا القليل جداً من العطر. كان في هذه المقصورة عندئذ رائحة جو بارد فاسد: رائحة الكبريت الخارج من القطار، ورائحة صابون، ورائحة كريهة أخرى. فكرت أن هذه الرائحة تصدر من ياقة الفرو التي تلتف بها المرأة البدينة الجالسة بجانبها. تشممت بيلار الرائحة بهدوء وهي تستنشق بحذر رائحة الفتالين المقاوم للعث، وفكرت كم هو غريب أن يختار المرء مثل هذه الرائحة عطراً له.

انطلقت صافرة، ونادى صوت جهوري بعبارة ما، ودوى صوت عالٍ فتحرك القطار مبتعداً عن المحطة ببطء. ها قد انطلق القطار، وها هي تمضي إلى هدفها.

خفق قلبها خفقات سريعة بعض الشيء. هل سيكون الأمر على ما يرام؟ هل ستكون قادرة على تحقيق ما عزمت عليه؟ بالتأكيد... بالتأكيد. لقد فكرت بالأمر كله بعناية كبيرة، وكانت مستعدة لكل احتمال. آه، نعم، سوف تنجح، لا بد أن تنجح.

انحنت الخطوط حول فم بيلار القاني نحو الأعلى، وغداً ذلك الفم قاسياً فجأة، قاسياً وجشعاً كفم طفل أو هرة! أصبح فماً لا يعرف إلا رغباته الخاصة فقط، وكأنه لم يعرف الشفقة من قبل.

نظرت حولها بفضول صريح كطفل. كل هؤلاء الأشخاص السبعة... يا لغرابة هؤلاء الإنكليز! بدوا جميعاً أغنياء جداً ومرفهين كثيراً، ملابسهم... أحذيتهم... آه! لا شك أن إنكلترا بلاد غنية جداً

كما كانت تسمع عنها دائماً. لكنهم لم يكونوا مبتهجين أبداً. نعم، لم يكونوا مبتهجين بالتأكيد.

كان رجلاً وسيماً ذاك الذي يقف في الممر. فكرت بيلار بأنه وسيم جداً. أحببت وجهه البرونزي وأنفه المرتفع وكتفيه العريضين، وأدركت بأسرع مما تدركه أي فتاة إنكليزية أن الرجل أعجب بها. لم تنظر إليه ولو مرة واحدة نظرة مباشرة، لكنها عرفت تماماً كيف كان ينظر إليها كثيراً وعرفت بالضبط كيف كانت نظراته.

سجلت هذه الحقائق دون كثير اهتمام أو عاطفة، فهي من بلد ينظر فيه الرجال إلى النساء بشكل عادي ولا يحرصون على إخفاء ذلك. تساءلت إن كان هذا الرجل إنكليزياً، ثم قررت أنه لم يكن كذلك.

قررت بيلار في نفسها: "إنه أكثر حيوية من أن يكون إنكليزياً. ومع ذلك فهو أبيض اللون. قد يكون أمريكياً". وفكرت أنه يشبه الممثلين الذين رأتهم في أفلام رعاة البقر الأمريكية.

شقَّ أحد المضيفين طريقه عبر الممر وهو ينادي: وجبة الغداء الأولى من فضلكم، وجبة الغداء الأولى. احجزوا مقاعدكم من أجل الغداء.

كان جميع الجالسين السبعة في مقصورة بيلار يحملون تذاكر وجبة الغداء الأولى، فنهضوا كلهم وأصبحت المقصورة فجأة فارغة وهادئة، فسحبت بيلار إلى الأعلى ستارة النافذة التي كانت امرأة متجهمة رمادية الشعر قد أنزلتها قليلاً، ثم تمددت على مقعدها بارتياح ونظرت خارج النافذة إلى الضواحي الشمالية للندن. لم تلتفت

إلى صوت الباب الذي كان ينغلق. كان ذلك الرجل الذي يقف في الممر، وعرفت بيلار -بالطبع- أنه دخل المقصورة بغرض التحدث معها، ولكنها واصلت النظر إلى خارج الشباك متأملة.

قال ستيفن فار: هل تحبين فتح النافذة؟

ردّت بيلار باحتشام: بالعكس؛ لقد أغلقتها لتؤي.

كانت تتحدث الإنكليزية بطلاقة، ولكن بلكنة خفيفة. وأثناء الصمت الذي تلا ذلك فكر ستيفن في نفسه: "صوت حلو فيه نكهة الشمس... دافئ كليلة صيف"! وفكرت بيلار: "أحبّ صوته. إنه فخم وقوي. إنه جذاب. نعم، إنه جذاب".

قال ستيفن: القطار مزدحم جداً.

- نعم، فعلاً. أظن أن الناس يغادرون لندن لأن الجو فيها قاتم جداً.

لم تكن بيلار قد رُبيت على الاعتقاد بأن الحديث مع رجال غرباء في القطارات يُعتبر خطأ. كانت تستطيع المحافظة على نفسها كأبي فتاة أخرى، ولكن لم تكن لديها حدود صارمة. وربما كان من شأن ستيفن -لو أنه نشأ في إنكلترا- أن يشعر بحرج من الدخول في حديث مع فتاة، ولكنه كان رجلاً ودوداً يرى من الطبيعي أن يتحدث مع من يشاء إذا أعجبه ذلك.

ابتسم لاإرادياً وقال: إن لندن مكان رهيب، أليس كذلك؟

- آه، بلى؛ لا أحبها أبداً.

- ولا أنا.

- أنت لست إنكليزياً، أليس كذلك؟

- بل أنا إنكليزي، ولكنني جئت من جنوب أفريقيا.

- آه، فهمت، هذا يوضح الأمر.

- هل جئت لتوك من الخارج؟

أومات بيلار برأسها وقالت: جئت من إسبانيا.

أصبح ستيفن مهتماً وقال: آه، من إسبانيا؟ إذن فأنت إسبانية؟

- أنا نصف إسبانية. أمي إنكليزية، لذلك أتكلم الإنكليزية جيداً.

- ماذا عن أمر هذه الحرب؟

- إنها رهيبة، نعم... محزنة جداً. لقد وقع خراب، خراب كثير... نعم.

- أيّ جانب تؤيدين؟

بدا أن اتجاهات بيلار السياسية غامضة. أوضحت أن أحداً في القرية التي جاءت منها لا يهتم كثيراً بالحرب. "لم تكن قريبة منّا. كان العمدة -بالطبع- موظفاً حكومياً لذلك فهو يؤيد الحكومة، أما الكاهن فكان مؤيداً للجنرال فرانكو... ولكن معظم الناس مشغولون بكرومهم وأراضيهم وليس لديهم الوقت للخوض في هذه المسائل".

- إذن لم يقع أي قتال قريباً منكم؟

أكدت بيلار ذلك، ثم أوضحت قائلة: ولكنني ذهبتُ ذات مرة في سيارة للتجول في البلاد فوجدت الكثير من الدمار، ورأيت قنبلة سقطت وفجرت سيارة... نعم، وقنبلة أخرى دمّرت بيتاً. كان ذلك مثيراً جداً!

ابتسم ستيفن ابتسامة باهتة قليلاً وقال: إذن هكذا بدالك الأمر؟ أوضحت بيلار قائلة: كان أمراً مزعجاً أيضاً لأنني كنت أريد مواصلة الرحلة، ولكن سائق سيارتي قُتل.

قال ستيفن وهو يراقبها: ألم يزعجك هذا الأمر؟

فتحت بيلار عينيها السوداوين الكبيرتين باتساع وقالت: لا بد لكل امرئ أن يموت! هذا صحيح، أليس كذلك؟ إذا جاء الموت بسرعة من السماء... بوم... هكذا، فتلك ميتة أسهل من سواها. إن المرء يعيش عمراً محدداً. نعم، وبعد ذلك يموت. هذا ما يحدث في هذا العالم.

ضحك ستيفن وقال: لا أظنك من أنصار السلام؟

- لا تظني ماذا؟

بدأ وكأن كلمة «السلام» لم تدخل قاموس بيلار.

- هل تسامحين أعدائك يا آنسة؟

- ليس لي أعداء. ولكن لو كان لي...

- حسناً؟

كان يراقبها مسحوراً بغمها الجميل القاسي الذي انحنت زواياه

للأعلى. قالت بيلار بهدوء: "لو كان لي عدو... أحد يكرهني وأكرهه، لقطعت حنجرته هكذا"، وأشارت بيدها بطريقة معبرة.

كانت إشارتها من السرعة والفظاظة بحيث فاجأت ستيفن ولجمته عن الكلام لوهلة، ثم قال لها: أنت فتاة متعطشة للدماء!

سألته بيلار بنبرة واقعية: ماذا كنت ستفعل بعدوِّك؟

فوجئ بالسؤال. حدّق إليها، ثم ضحك بصوت عال وقال: لا أعرف... لا أعرف!

قالت بيلار باستهجان: أنت تعرف... بالتأكيد.

سيطر على ضحكته وقال بصوت منخفض: "نعم، أعرف". ثم سألها وقد غيّر أسلوبه بسرعة: ما الذي أتى بك إلى إنكلترا؟

أجابته بيلار بشيء من الاحتشام: سأقيم عند أقاربي... أقاربي الإنكليز.

قال: "فهمت"، واستند بظهره إلى مقعده وهو يفحصها ويتساءل عن شكل أقاربها الإنكليز الذين تتحدث عنهم. تساءل عمّا سيفهمونه من هذه الغربية الإسبانية محاولاً أن يتخيلها وسط عائلة إنكليزية تقليدية جادة في عيد الميلاد.

سألته بيلار: أجميلة هي جنوب أفريقيا؟

بدأ يتحدث إليها عن جنوب أفريقيا. واستمعت إليه باهتمام سعيد كطفل يسمع حكاية، وقد استمتع بأسئلتها الساذجة رغم ذكائها، وسلّى نفسه بالمبالغة الخيالية في إجاباته. وقد وضعت عودة

ركاب المقصورة إلى أماكنهم حداً لهذه الفرص السانحة، فنهض من مكانه وابتسم لها وعاد إلى الممر.

وبينما كان يقف عند مدخل الباب ويتراجع إلى الوراء قليلاً ليسمح لامرأة كهلة بالدخول وقعت عيناه على الملصق المثبت على حقيبة بيلار الأجنبية المصنوعة من القش، وقرأ الاسم باهتمام: «الآنسة بيلار إيسترافادوس». وبعد ذلك، عندما وقعت عيناه على العنوان اتسعتا باستغراب وانتابه إحساس آخر: «غورستون هول، لونغديل، أدلنزفيلد».

التفت نصف التفتاة ليحدد إلى الفتاة بتعابير جديدة، تعابير حائرة، ساخطة، مرتابة! ثم خرج إلى الممر ووقف هناك وهو عابس.

* * *

في غرفة الاستقبال الكبيرة الزرقاء والذهبية في المنزل المسمى «غورستون هول» جلس ألفرد لي وزوجته ليديا يناقشان خططهما بخصوص عيد الميلاد.

كان ألفرد رجلاً مربعاً في متوسط العمر ذا وجه لطيف وعينين بنيتين هادئتين، وكان صوته -عندما يتحدث- هادئاً دقيقاً مع نطق واضح جداً، فيما غطس رأسه في كتفيه بشكل يعطي انطباعاً غريباً بالكسل. أما زوجته ليديا فكانت امرأة نشيطة نحيلة أشبه بكلب سلوقي، ورغم نحولها البالغ إلا أن كل حركاتها كانت توهي بالفخامة والرشاقة.

لم يكن في وجهها المتعب اللامبالي جمال، ولكن كان فيه

تميّز واضح ، أما صوتها فكان ساحراً.

قال ألفرد: إن أبي يصرّ. لا مجال آخر أمامنا.

منعت ليديا نفسها من الإقدام على حركة مفاجئة من نفاذ الصبر
وقالت: أيجب أن تدعن له دائماً؟

- إنه رجل عجوز جداً يا عزيزتي.

- آه، أعرف... أعرف!

- وهو يتوقع أن تجري الأمور وفق إرادته.

قالت ليديا ببرود: هذا طبيعي ما دام ينجح في ذلك دائماً!
ولكن لا بد لك أن تتخذ موقفاً في يوم ما يا ألفرد.

- ماذا تقصدين يا ليديا؟

حدّق إليها. كانت منزعة مرتبكة بحيث عصّت على شفتها
لحظة وبدت مترددة في مواصلة حديثها. وأعاد ألفرد سؤاله: ماذا
تقصدين يا ليديا؟

رفعت كتفيها الرشيقيين حيرة وقالت محاولة اختيار كلماتها
بحذر: إن أباك... إنه يميل لأن يكون استبدادياً.

- إنه كبير بالسن.

- وسيكبر أكثر، وبالتالي سيصبح مستبدًا أكثر. إلى أين ينتهي
هذا؟ إنه يتحكم بحياتنا تحكماً كلياً حتى إننا لا نستطيع وضع خطة
واحدة بأنفسنا، ولو حصل ووضعناها تكون معرّضة دائماً للإفساد.

قال ألفرد: إن أبي يتوقع أن تكون له أولوية. تذكّري أنه طيب جداً معنا.

- آه! طيب معنا؟!

- طيب جداً معنا.

تحدث ألفرد بشيء من الإصرار، فقالت ليديا بهدوء: هل تقصد مالياً؟

- نعم. إن حاجاته الخاصة بسيطة جداً، لكنه لا يضمن علينا بالمال أبداً. تستطيعين أن تنفقي ما تشائين على ملابسك وعلى هذا البيت، وهو يدفع الفواتير دون أن يتدمر، كما أنه وهبنا سيارة جديدة في الأسبوع الماضي.

- بالنسبة للمال أعترف بأن والدك كريم جداً، ولكنه -مقابل ذلك- يريد متاً أن نتصرف كعبيد.

- عبيد؟!!

- نعم، هذا ما قلته. أنت فعلاً عبد له يا ألفرد. لو خططنا للسفر وفجأة لم يُرد لنا أبوك أن نساfer فسوف تلغي ترتيباتك وتبقى دون أن تنيس بكلمة! وإن أوحث له نزوة من نزواته أن يدعنا نرحل فإننا نرحل! ليست لنا حياتنا الخاصة... ليس عندنا استقلال.

قال زوجها متألماً: ليتك لا تتحدثين هكذا يا ليديا؛ هذا نكران للجميل. لقد عمل والدي كل شيء من أجلنا.

كظمت إجابةً كانت تتراقص على شفيتها، ورفعت كتفها

النحيلين الرشيقتين بلا مبالاة مرة أخرى.

قال ألفرد: أتعلمين أن الرجل العجوز يحبك كثيراً يا ليديا؟

قالت زوجته بوضوح وصراحة: أنا لا أحبه على الإطلاق.

- ليديا، يؤلمني كثيراً أن أسمعك تقولين أشياء كهذه. هذه فظاظة كبيرة.

- قد تكون كذلك، ولكن الإنسان يضطر أحياناً لقول الحقيقة.

- لو عرف أبي...

- أبوك يعرف تماماً أنني لا أحبه، وأظن أن هذا يسره!

- يا لأفكارك يا ليديا! أنا متأكد أنك مخطئة في هذا. لطالما أشاد أمامي بروعة سلوكك معه.

- من الطبيعي أن أكون مهذبة معه، وسأكون كذلك دائماً. إنني أبوح لك فقط بأحاسيسي الحقيقية. أنا لا أحب أباك يا ألفرد. أظنه عجوزاً حقوداً مستبداً، وهو يتسلط عليك ويستغل تعلقك به. كان يجب عليك أن تواجهه منذ سنوات.

قال ألفرد محتدماً: هذا يكفي يا ليديا؛ أرجوك أن لا تقولي المزيد.

تنهدت وقالت: أنا آسفة، قد أكون مخطئة. دعنا نتحدث عن ترتيباتنا لعيد الميلاد: هل تعتقد حقاً أن أخاك ديفيد سيأتي؟

- ولم لا؟

هزت رأسها بارتياب وقالت: إن ديفيد... شخص غريب. تذكر أنه لم يدخل البيت منذ سنوات. لقد كان شديد التعلق بأمك، ولديه إحساس معين إزاء هذا البيت.

- كان ديفيد يثير أعصاب والدي دائماً بموسيقاه وأساليبه الحالمة. ربما كان والدي قاسياً عليه أحياناً، ولكنني أظن أن ديفيد وهيلدا سيحضران. إنه عيد الميلاد كما تعلمين.

قالت ليديا ساخرة: "السلام والنوايا الحسنة..."، ثم أضافت: لا أعرف إن كان جورج وماغدا لين سيأتيان. قالوا إنهما قد يصلان غداً، وأظن أن ماغدا لين ستشعر بممل فظيع.

قال ألفرد بشيء من الانزعاج: لا أعرف ما الذي دفع أخي جورج للزواج بفتاة تصغره بعشرين عاماً. كان جورج مغفلاً دائماً!

- إنه ناجح جداً في مهنته. إن ناخبيه يحبونه، وأعتقد أن ماغدا لين تبذل كل جهدها على الصعيد السياسي من أجله.

قال ألفرد ببطء: لا أظن أنني أحبها كثيراً. إنها جميلة جداً، ولكنني أراها أحياناً كواحدة من تلك التفاحات التي يأخذها المرء وقد أعجبه احمرارها ونضارتها...

ثم توقف هز رأسه، فأكملت ليديا عبارته: وتكون فاسدة من الداخل. أليس كذلك؟ غريب منك أن تقول ذلك يا ألفرد!

- لماذا هو غريب؟

- لأنك شخص وديع لطيف في العادة، وأنت لا تكاد تذكر

أحداً بسوء أبداً. إنني أنضايق منك أحياناً لأنك لست... كيف أعبر عن ذلك؟ لأنك لست نزاعاً إلى الشك لدرجة كافية؛ لست واقعياً بما فيه الكفاية. كأنك لست من هذا العالم!

ابتسم زوجها وقال: أنا أعتقد أن العالم هو ما نصنعه نحن.

قالت ليديا بجزم: "كلا! إن الشر ليس فقط في عقل المرء، الشر موجود! ولكن يبدو أنك لا تعي وجود الشر في العالم، أما أنا فأدركه، أستطيع أن أشعر به. لقد شعرت به دائماً... هنا، في هذا البيت". ثم عضت على شفتها والتفتت.

قال ألفرد: "ليديا..."، لكنها رفعت يداً سريعة محذرةً وعيناها تنظران إلى شيء وراءه. التفت ألفرد، وكان هناك رجل أسمر هادئ الوجه يقف بأدب.

قالت ليديا بحدة: ما الأمر يا هوربري؟

كان صوت هوربري منخفضاً أقرب إلى تمتمة مؤدبة: إنه السيد لي يا سيدتي. طلب مني أن أخبركما أن ضيفين آخرين سيصلان لحضور عيد الميلاد، إن كان بالإمكان تحضير غرفتين لهما.

قالت ليديا: ضيفان آخران؟!

أجاب هوربري بهدوء: نعم يا سيدتي، رجل آخر وفتاة شابة.

قال ألفرد متعجباً: فتاة شابة؟!

- هذا ما قاله السيد لي يا سيدي.

قالت ليديا بسرعة: سأصعد إليه لأكلمه.

خطا هوربري خطوة صغيرة لا تكاد تُلاحظ، ولكنها أوقفت تقدم ليديا السريع بصورة تلقائية، ثم قال: اعذريني يا سيدتي، فالسيد لي يرتاح في قيلولته الآن وقد طلب بشكل خاص أن لا يزعجه أحد.

قال ألفرد: فهمت؛ لن نزعجه بالطبع.

- شكراً لك يا سيدي.

ثم انسحب هوربري.

قالت ليديا بعنف: كم أكره هذا الرجل! إنه يتسلل داخل البيت مثل القطة، لا أحد يسمعه وهو يأتي ويذهب.

- أنا لا أحبه أيضاً، ولكنه يتقن عمله. ليس من السهل الحصول على ممرض جيد يعتني بالعجوز، كما أن والدي يحبه وهذا هو المهم.

- نعم، هذا هو الأمر المهم كما تقول. ما هذا الكلام عن فتاة شابة يا ألفرد؟ أيّ فتاة هذه؟

هز زوجها رأسه وقال: لا أستطيع تخيل من تكون، بل إنني لا أستطيع التفكير بأي فتاة محتملة.

حدّق كل منهما إلى الآخر، ثم قالت ليديا فجأة: هل تعرف ما أفكر به يا ألفرد؟

- ماذا؟

- أظن أن والدك شعر بالملل مؤخراً، وأحسبه يخطط لعمل تغيير بسيط لنفسه في عيد الميلاد.

- عن طريق إدخال غريبين اثنين إلى اجتماع عائلي؟

- آه! لا أعرف ما هي التفصيلات، ولكنني أتصور أن والدك يحضّر شيئاً... شيئاً ما سيسلّي به نفسه.

قال ألفرد بتجهم: أرجو أن يستمتع حقاً بهذا العيد. مسكين هذا العجوز، مريض مقعد بعد حياة المغامرات التي عاشها!

قالت ليديا ببطء: "بعد حياة المغامرات التي عاشها". قالتها بطريقة ذات مدلول خاص رغم غموضه، وبدا أن ألفرد شعر بذلك فاحمرّ وجهه وبدا حزيناً.

صاحت فجأة: لا أستطيع أن أتخيل كيف استطاع أن ينجب ابناً مثلك! إنكما على النقيض تماماً. كما أنه يفتنك... إنك تكاد تعبه!

قال ألفرد مغتاضاً: ألسنت تبالغين قليلاً يا ليديا؟ أظن أن من الطبيعي أن يحب الولد أباه، بل إن من غير الطبيعي تماماً أن لا أحبه.

- في هذه الحالة سيكون معظم أفراد هذه العائلة غير طبيعيين! آه، دعنا من الجدل. أنا آسفة؛ أعرف أنني جرحت مشاعرك. صدّقني يا ألفرد: لم أقصد فعل ذلك حقيقة. إنني معجبة بك كثيراً بسبب برك وولائك، فالإخلاص فضيلة نادرة هذه الأيام. لنقل إنني غيورة؟ ألا يُفترَض بالنساء أن يعرّزن من أمهات أزواجهن؟ لماذا إذن لا يعرّزن من آبائهم أيضاً؟

مدّ ذراعه حولها بلطف وقال: إنّ لسانك يفلت منك يا ليديا.

لا سبب يدعوك للغيرة.

قبْلته قبله ندم سريعة وقالت: أعرف، ومع ذلك لا أظن أنني كنت سأغار من والدتك أبداً يا ألفرد. أتمنى لو أنني كنت عرفتها.
- لقد كانت امرأة مسكينة.

نظرت زوجته إليه باهتمام وقالت: إذن هكذا تنظر إليها... على أنها امرأة مسكينة؟ هذا أمر مثير للاهتمام.

قال حالماً: "أتذكّرها وهي تكاد تكون مريضة دائماً، وكانت تبكي في الغالب". ثم هز رأسه وقال: لم تكن ذات عزيمة.
تمتت بهدوء وهي ما زالت تحديق إليه: يا للغرابة!

لكن عندما التفت إليها متسائلاً هزت رأسها بسرعة وغيّرت مجرى الحديث: بما أن من غير المسموح لنا أن نعرف ضيفينا فسأخرج لأنهي عملي في الحديقة.

- إن الجو بارد جداً يا عزيزتي، الريح قارصة.

- سأتدثر جيداً.

غادرت الغرفة، وبقي ألفرد وحيداً ساكناً لبعض الوقت. بدا عابساً قليلاً، ثم سار باتجاه الباب الزجاجي في نهاية الغرفة.

في الخارج كانت مصطبة تمتد على طول البيت، وهناك رأى ليديا بعد بضع دقائق تظهر وهي تحمل سلة مسطحة. كانت ترتدي معطفاً ثقيلاً، ووضعت السلة وبدأت تعمل عند حوض مربع من الحجر يعلو قليلاً فوق مستوى الأرض. راقبها زوجها لبعض الوقت،

وأخيراً خرج من الغرفة وأحضر لنفسه معطفاً وخرج إلى المصطبة من باب جانبي. وقد مرّ -وهو يسير- بالعديد من الأحواض الحجرية الأخرى التي نُسقت على شكل حدائق مصغرة، وكلها من عمل يدي ليديا البارعتين.

كان أحدها يمثل منظرًا صحراويًا فيه رمال صفراء ناعمة ومجموعة صغيرة من أشجار النخيل في صفائح ملونة وقافلة من الجمال، كما بُنيت بعض البيوت الطينية البسيطة باستخدام بعض اللدائن. ومثل حوضٍ آخر حديقةً إيطالية مع مصاطب ومسالك من الأزهار المعمولة من الشمع الملون. وكانت هناك -أيضاً- حديقة من حدائق القطب الشمالي مع كتل الزجاج الأخضر التي تمثل الجبال الجليدية ومجموعة صغيرة من طيور البطريق. بعد ذلك تأتي حديقة يابانية مع شجرتين صغيرتين جميلتين وزجاج للرؤية تحت الماء ونماذج جسور مصنوعة من اللدائن.

جاء أخيراً ووقف إلى جانبها حيث كانت تعمل. كانت قد وضعت ورقة زرقاء وغطتها بالزجاج، وحول هذا الزجاج كانت أكوام من الصخور. وفي تلك اللحظة كانت تفرغ حصى خشناً من كيس صغير لتشكل منها شاطئاً، وكانت بين الصخور بعض أشجار الصَّبَّار الصغيرة. همهمت ليديا قائلة لنفسها: نعم، هذا صحيح بالضبط... هذا ما أريده تماماً.

قال ألفرد: ما آخر الأعمال الفنية هذه؟

جفلت إذ لم تكن قد سمعته وهو قادم إليها. قالت: هذا؟ آه، إنه البحر الميت يا ألفرد. هل أعجبك؟

- يبدو قاحلاً بعض الشيء ، أليس كذلك؟ ألا ينبغي أن يكون فيه المزيد من الخضرة؟

هزّت رأسها وقالت: هذا ما أتصوره أنا عن البحر الميت؛ إنه «ميت»!

- إنه ليس جذاباً كالأحواض الأخرى.

- لم يكن المقصود منه أن يكون جذاباً بشكل خاص.

سُمع صوت أقدام على المصطبة، وجاء إليها خادم كهل أبيض الشعر في ظهره شيء من الانحناء وقال: السيدة جورج لي على الهاتف يا سيدتي. إنها تسأل إن كان من المناسب أن تصل هي والسيد جورج في قطار الساعة الخامسة والثلاث غداً؟

- نعم، أخبرها أن هذا مناسب تماماً.

- شكراً يا سيدتي.

أسرع الخادم عائداً وتابعته ليديا بنظراتها وقد انبسطت أساريرها، ثم قالت: يا للعجوز العزيز تريلسيان، يا له من مُعين جاهز دوماً! لا أدري ماذا كنا سنفعل دونه.

وافقها ألفرد قائلاً: إنه من الطراز القديم من الخدم. إنه يعمل معنا منذ أربعين سنة تقريباً، وهو متعلق بنا جميعاً.

- نعم، إنه واحد من أولئك المرافقين المخلصين القدامى كما تُصوّرهم الروايات. أظن أن من شأنه أن يفعل كل شيء إذا تطلب الأمر حماية أحد أفراد العائلة!

- نعم، من شأنه أن يفعل كل شيء... أحسبه كذلك.

مسدت ليديا بيدها آخر كومة من الحصى وقالت: ها قد أصبح جاهزاً.

- جاهزاً؟

بدا ألفرد متحيراً. ضحكت وقالت: جاهز لعيد الميلاد أيها الأحمق! لهذا العيد العائلي المفرط في عاطفيته الذي ننتظره.

* * *

قرأ ديفيد الرسالة، ثم كورها بيده وألقاها بعيداً عنه، ثم عاد إليها فأخذها وفتحها ثم مسدها بيده وقرأها ثانية.

راقبته زوجته هيلدا بهدوء دون أن تقول شيئاً. لاحظت في صدغه تلك العضلة التي تنتفض (أم أنها كانت عصباً؟) ولاحظت الرعشة الخفيفة في يديه الطويلتين الناعمتين والحركات العصبية المتشنجة لجسمه عموماً. وعندما أبعده جانباً خصلة من شعره الأشقر (كانت غالباً ما تتدلى فوق جبينه) ونظر إليها بعينين زرقاوين مستغيثتين كانت مستعدة لذلك.

سألها: ماذا سنفعل إزاء هذا الأمر يا هيلدا؟

ترددت هيلدا لحظة قبل أن تجيبه. كانت قد أدركت ما في نبرة صوته من استغاثة، وكانت تدرك مدى اعتماده عليها، إذ كان ذلك دأبه دوماً منذ زواجهما. كانت تعرف أنها قد تستطيع التأثير على قراره تأثيراً نهائياً وحاسماً، ولكنها -لذلك السبب تحديداً- كانت حذرة من إصدار أي حكم نهائي.

قالت بصوت هادئ أشبه بصوت مربية محترفة تُطمئن طفلاً:
هذا يعتمد على كيفية شعورك بهذا الأمر يا ديفيد.

كانت هيلدا امرأة عريضة المنكبين، ليست بالجميلة ولكنها ذات
جاذبية غريبة، وفي صوتها نبرة تبعث الدفء والود وفي شخصيتها
شيء من القوة... القوة الخفية الحيوية التي تستهوي وتجذب الضعف
والضعفاء. كانت امرأة بدينة جداً وقصيرة في أواسط عمرها، ليست
ذكية أو لماحة ولكن فيها شيئاً لا يستطيع المرء تجاوزه... القوة!
كانت لدى هيلدا القوة!

نهض ديفيد وبدأ يسير جيئةً وذهاباً. لم يكن الشيب قد اقترب
من شعره بعد، وكان يبدو «صبيانياً» على نحو غريب، بوجهه البسيط
الهادئ الذي يكاد يعطي انطباعاً غامضاً بأنه غير حقيقي.

قال بصوت مكتئب: تعرفين شعوري تجاه هذا الأمر يا هيلدا...
لابد أنك تعرفين.

- لست متأكدة.

- ولكنني أخبرتك... أخبرتك مراراً وتكراراً كيف أكره هذا الأمر
كله، البيت والمنطقة التي تحيط به وكل شيء! إنه لا يذكرني إلا
بالبؤس. إنني أكره كل لحظة قضيتها هناك! عندما أفكر في ذلك...
وبكل ما كانت تعاني منه والدتي.

أومأت زوجته برأسها موافقة، ومضى هو قائلاً: كانت لطيفة
جداً يا هيلدا، وصبورة جداً، وهي تتمدد هناك وتعاني الألم في
أغلب الأوقات، ولكنها تتحمله. كانت تتحمل كل شيء. وعندما
أفكر في والدي...

ثم اكفهرّ وجهه وهو يقول: والدي الذي جلب كل هذا البؤس لحياتها... يذلّها وهو يتباهى بعلاقاته الغرامية أمامها. كان يخونها باستمرار ولا يكلف نفسه عناء إخفاء ذلك عنها.

قالت هيلدا: ما كان عليها أن تصبر على هذا؛ كان عليها أن تتركه.

قال بشيء من اللوم: كانت أطيب من أن تفعل ذلك؛ رأيت أن من واجبها أن تبقى. ثم إن ذلك كان بيتها، فأين عساها تذهب؟
- كانت تستطيع أن تحيا حياة مستقلة.

قال ديفيد بغيظ: لم يكن هذا ممكناً في تلك الأيام! أنت لا تفهمين. لم تكن النساء يتصرفن هكذا. كنّ يصبرن على المكاره ويتحملن الحياة صابرات. كانت تفكر فينا، حتى لو انفصلت عن والدي فماذا كان سيحدث؟ ربما كان من شأنه أن يتزوج ثانية، وربما كانت مصالحن نحن سستهّدّد. كان عليها أن تفكر بكل تلك الاعتبارات.

لم تردّ هيلدا عليه، فمضى قائلاً: نعم، لقد فعلت الصواب. كانت قدّيسة! لقد تحملت حتى النهاية دون أن تتذمر.

قالت هيلدا: ليس دون أن تتذمر، وإلا ما كنت لتعرف كل هذه الأمور ياديفيد!

قال بهدوء وقد أشرق وجهه: "نعم، لقد أخبرتني بأشياء. كانت تعرف كم كنت أحبها، وعندما توفيت...". سكت، ثم مرّر يديه على شعره وقال: هيلدا، لقد كان ذلك شنيعاً... رهيباً! الكآبة!

كانت ما زالت شابة وما كان ينبغي لها أن تموت. لقد قتلها... أبي!
كان مسؤولاً عن وفاتها؛ لقد كسر قلبها، وقد قررت بعدها أن
لا أعيش معه تحت سقف واحد. خرجت من عنده وابتعدت عن
ذلك الجو كله.

أومأت هيلدا برأسها موافقة وقالت: لقد كنت حكيماً جداً؛
إن ما فعلته هو الصواب.

قال ديفيد: كان والدي يريدني أن أتولى المصنع، وكان هذا
يعني أن أعيش في المنزل. لم أستطع تحمل ذلك؛ لا أستطيع أن
أتصور كيف يتحمل الفرد ذلك... كيف تحمّل ذلك طوال هذه السنين.
سألته هيلدا ببعض الاهتمام: ألم يُثّر من هذا الواقع أبداً؟ أظنك
أخبرتني شيئاً عن تركه وظيفته أخرى.

أوماً ديفيد موافقاً وقال: كان مقرراً أن يلتحق الفرد بالجيش،
وقد رتب والدي هذا كله مقرراً أن يذهب ألفرد (وهو أكبرنا سنّاً)
إلى سلاح الفرسان، كما تقرر أن يتولى هاري المصنع، وكذلك أنا.
وجورج كان سيدخل في عالم السياسة.

- ولكن الأمور لم تجرِ على هذا النحو، أليس كذلك؟

هز ديفيد رأسه نافياً وقال: لقد أفسد هاري ذلك كله! كان
دوماً في غاية الرعونة؛ يتورط في الديون وجميع أنواع المشكلات
الأخرى، وفي نهاية المطاف رحل يوماً آخذاً معه عدة مئات من
الجنيهات لم تكن ملكاً له، وترك ملاحظة وراءه يقول فيها إن عمل
المكاتب لا يناسبه وإنه ذاهب لرؤية العالم.

- ألم يصلكم منه شيء بعد ذلك؟

ضحك ديفيد وقال: آه، بلى، وصلنا؛ وصلنا الكثير منه! كان يبرق دائماً من جميع أنحاء العالم طلباً للنقود، وكان يحصل عليها دائماً أيضاً!

- والفرد؟

- جعله والدي يستقيل من الجيش ويعود إلى المصنع.

- وهل تأثر لذلك؟

- تأثر في البداية كثيراً. كان يكره ذلك، لكن أبي كان يستطيع دائماً التأثير على ألفرد، وأظن أنه ما زال في جيب والدي لا يحدد عن رأيه.

- وأنت... نجوت!

- نعم، ذهبت إلى لندن ودرست الرسم. أخبرني والدي صراحة أنني إذا رحلت لغرض أحقق كهذا فسوف أحصل على معاش صغير منه أثناء حياته ولن أحصل على شيء بعد وفاته، وقلت له إنني لا آبه لذلك. كان يسميني «الشاب الأحمق»، وانتهى الأمر عند هذا الحد! لم أره منذ ذلك الوقت قطّ.

قالت هيلدا بلطف: وهل ندمت على ذلك؟

- لا. أنا أدرك أنني لن أنجح أبداً في فني ولن أكون فناناً عظيماً أبداً، لكننا سعيدان بما فيه الكفاية في هذا الكوخ. لدينا كل ما نريده... جميع الأشياء الأساسية، وإذا متّ فإن حياتي مؤمّن عليها لصالحك.

سكت ثم قال: والآن... تأتينا هذه!

ضرب الرسالة بيده فقالت: أنا آسفة لأن والدك كتب تلك الرسالة، إن كانت تزعجك لهذه الدرجة...

واصل ديفيد حديثه وكأنه لم يسمعها: يطلب مني أن أحضر زوجتي لعيد الميلاد راجياً أن نتجمع جميعنا في هذه المناسبة، عائلة متحدة! ماذا يمكن أن يعني ذلك؟

نشكرك على الاهتمام بمنشوراتنا، ونأمل أن تكون الصفحات التي قرأتها قد وفّرت لك قراءة ممتعة وعرفتك بالرواية.

يمكنك شراء نسخة ورقية من هذه الرواية (وسواها من الروايات) من موقعنا مباشرة، ونرجو عدم التردد بالاتصال بنا لو احتجت لأي مساعدة.

الأجيال

www.al-ajyal.com